لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم. ومضيت عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا على ، وأن ينجح مع عبثهم الطبيعى فى مثل سنهم

وفى آخر سنة من اشتغالي بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة : إنى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ . ونظريتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها ، وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوى مداركه وينمى استعداده ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل . وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى أى معونة على ضبط النظام، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون ولم أكتف بهذا بل ألغيت «الجرس» الذى يدق إيذاناً بابتداء الدرس أو انتهائه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم فى الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التى تستعمل فى المدارس والتى تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعى لهم . وقد كنت أحب أن أظل فى هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة . ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

ابرهيم عبد القادر المازنى

حرمة البيـــان

للأستاذ عبد المنعم خلاف

لو كان الأدباء «إلهيين» يقدمون لله الأزهار التى يقتطفونها بأقلامهم من حديقته قبل أن يقدموها للناس ، لحسبوا للحق والشرف والجمال الأصيل أكبر حساب ، ولاستحيوا أن يقدموا لعين الله الناقدة العالمة كلاماً باطلاً أو دنيئاً أو زائفاً ... ولكن كثيراً منهم رضوا بأن يكونوا « وثنيين » ينحتون من الألفاظ أصناماً يزوقونها ويصرفون الانسانية بها عن وجه الله فى بعض الأحيان ... !

فهم يقدمون أزهارهم للأعين الكليلة البليدة مُغفلين « الفنان الأعظم ! » الذى يجب أن يرفع إليه كل عمل جميل شريف حتى يوقع عليه بطابعه ...

ما هو الجمال ؟ ما هو الحق ؟ ما هو الشرف ؟ لولا الله ...

كل المعايير والموازين ساقطة باطلة بلبلة إذا لم تكن فى يده هو !

كل الصدق كذب ... وكل الخير شر ... وكل الحق باطل إذا لم يقله لنا هو !

* * *

ما الفرق بين صانع الكلام وصانع الأحذية إذا كان مدار الكلام هو الخبز ... أو إرضاء جمهور الحرفاء أو الشهرة الجائعة التى لا تشبع أبداً ؟

إنى أقرأ بعض صحف الكلام فأشعر أنها من حقارتها وذلها كالنمل ... وكالنمل البالية القذرة لكثرة ما فيها من خروق عقل صاحبها أو خروق خلقه ...

إن حاسة البيان جانب مقدس لأنها خاصة الانسان المترجم عن الإلهية ، فيجب أن يكون فيها ذلك السيال الخفى فى الأصوات أو فى السطور

وإن فى حديقة الله أعاجيب وتهاويل وحقائق كبيرة لا يسمح

إلا للأقلام النظيفة بالقرب منها ورصدها وتقريبها لذوى النظر القاصر من الانسانية المادية العاملة التى ليس لها وقت للوقوف عند كل شيء ومحادثته وأخذه فى النفس بالتأمل والدرس

إن فى الأدب صوفية وكذلك فى الفن على العموم ، والصوفية نظافة وإدراك مرهف ودوران حول النفس والطبيعة وحساب دقيق للنسب بين الموجودات ثم نظرة داعة إلى الفنان الأعظم !

فمتى يدرك الأدباء أن هذا أساس البيان وأن مقاييس الشرف الأدبى تسقط الأدب الكاذب أو الداعر أو الزائف أو الجاهل بهذه الحقائق ولو ساقوا ألف دليل ودليل على أن مهمة الأدب تسجيل كل ما فى الحياة ولو كان فحشاً أو نكراً ؟

إنى أنزه حرمة البيان أن أسخره فى شيء تافه أو دنس حتى لا أصرف عنه عيون عشاق الحكمة الشرفاء الذين إليهم وحدهم يجب أن يرفع الكلام ويوجه الأثر الفني ... وحتى لا أقذى به عيون النساء والناشئين الذين يجب أن نصونهم عن القبح والزيف؛ والطفولة والشباب هما موضع آمال الإصلاح وقوالب المثل العليا التى فاتنا أن نحققها في أشخاصنا ، والنساء هن مستودع تلك القوالب ...

أنا أريد وأتمنى أن يكون الأدب واحة فى صحراء الحياة المادية بجانب واحة الدين ، لتفر إليها النفس المتهالكة المختنقة من ضجة الآلات ومادية العيش والارتفاق . وإن في الأدب سوراً تلمس فيها ذكاء وعبقرية صنع ، ولكنها لا تحرك فى نفسك ذلك الاحساس العميق بالحياة، ولا تثير فى قلبك ذلك الدم النادر الذى لا يثور إلا فى عبادة خالصة أو فى فرح مقدس أو ألم مقدس . وهنالك أدب يشعرك بذلك المعنى السامي الذى يؤكد لك الاحساس به أنك أعظم من جسدك الحيوانى ... وأنك أوسع من تلك الكتلة اللحمية المحدودة ... وأنك أخف من ذلك الجرم الترابى الكثيف المربوط بالأرض ... وأنك باستمرار محوط بأسرار وقوى تخاطبك وتجاذبك ... ولكنك لا تسمع ولا تحس إلا إذا فتحت سمعك كلمة منبهة من قلم نظيف حساس ...

جوهر النفس والطبيعة ينبغى أن يكون هو وحده مطلوب الفنان ، أما القشور فلا يطلبها فنان ذو افتتان بالحقائق الكبيرة التى تتطلب من راصدها عشقاً لها وحدها وأمانة لقوانينها وفضائلها

هنالك أدب كموسيقى « الجازبند » يثير فى النفس أطيش ما فيها وأخفه وأحمقه ، ولا يدخل عليها محصولاً من شعور نبيل أو فكرة كريمة ، ولا يلفتها إلى شيء مخبوء ، ولا يفتح لها باباً منلقاً ... هو تماماً كتلك الموسيقى المجنونة البربرية التى تحمل على طيش الجسد ورقصه وضجة شهواته وحماقاته . قد يكون فيه براعة لفظية وخفة يد أو لسان ... ولكنها كبراعة « الحاوى » وخفته ... لا تحملك على اعتقاد بأن صاحبها خالق أو جاد يقصد لباب الحياة ...

ومنذ أن قال امرؤ القيس أقواله الفاحشة فى المرأة ، ونظم الفرزدق وجرير الشتائم والسباب ، وقال أبو نواس وبشار وأضرابهما فى معانى الشذوذ والضعف الخلقى ، وامتلأ العصر العباسى الثاني بالتفنن فى تسجيل الصور الدنيئة من حياة الانسان كما يتمثل فى بتيمة الدهر (قاموس الأدب الداعر الوقح !) — منذ ذلك كله تحول ذوو الطبائع الجادة وعشاق الحكمة والمشغولون بالحق والجمال الأصيل إلى وجهات أخرى فى الحياة غير وجهة الأدب والاشتغال بمحصوله

* * *

لماذا يتكلم الناس ؟ ألإبانة عما فى نفوسهم ؟ أم لإخفاء ما فيها كما يقول « تاليران » الخطيب الفرنسى المشهور ؟

أنا مع تاليران كما دلتنى مواقف كثيرة كنت أقرأ فيها على الوجوه وأشمة العيون غير ما يقول اللسان ... وقد قرر عمر بن الخطاب أن مع التفاصح النفاق حين حبس الأحنف بن قيس مدة لما رأى من فصاحته ولسنه فخشى أن يكون وراءهما نفاق، ثم تبين له شذوذ القاعدة فى الأحنف فأطلقه . وقد دلتنى على ذلك أيضاً ألاعيب صناع الكلام والمفتونين فيه الذين يكفرون بالحق لأجل كلمة، ويغيرون مقاييس الطبيعة لأجل قافية، ويخسرون صداقة الفضيلة لأجل سجعة أو نكتة !

ولو كنت ذا وصاية عامة على تهذيب الناشئين لكانت مهمتى تتلخص فى تربيتهم على الاقتصاد فى الكلام ما وسع الصمت

وعلى التفكير فيه وحديث النفس به قبل إعلانه على تلك الآلة الصغيرة الخطرة : اللسان أو القلم !

التفكير التفكير ، وارتياد طريق الكلمة قبل تسجيلها بالصوت أو المداد ، وبث الكشافة من شعور النفس وفروض السامعين أو القارئين ، والاتيان بجديد إن كان المقصود بالبيان هو « الأثر الفني » وترك الآثار مدة حتى تختمر وترجع النفس وافرة وتقر الأخلاط الثائرة وتذهب فتنة ابتداء القول والاعجاب به كما يقول الجاحظ ، وكما أشار العماد الأصفهاني إلى طبيعة الاحساس بالنقص في الأثر البياني من صانعه بعد مرور حين من الزمان ...

* * *

لا يعنى الشاعر المتأمل أن يتكلم بقدر ما يعنيه أن يتأمل ! وإن لذة الخلوص إلى النفس ، والشعر النفسي الذي ترسله الروح بحوراً لا قيود لها ولا تكلف ولا كذب ولا ألفاظ بها وقراءة آثار الغير وقراءة الدنيا بدل الاملاء عليها ... ليست أقل من لذة الكلام وإظهار ما في النفس ، إن لم تفقها بأضعاف ! بل إن الثانية يصحبها ألم تقييد الطلق وتحديد اللانهائي وتضييق الواسع وضغط المعاني في قوالبها وطمس جمالها بالألفاظ العاجزة

وأنا شخصياً لا أجد في نفسي نشوة حين أقول بقدر النشوة التي أجدها حين أفهم ما يقال من الآثار الجيدة

والالحاح في طلب الشهرة من طريق تتابع الآثار الأدبية الخفيفة الوزن والمحصول هو عيب أكثر أدباء الشباب. فلو عرف كل أديب أن لاعليه أن يصمت حيث لا جديد عنده يضيف إلى ميراث الأدب سطرا قيما ، لاستراح هو من النقد واستراح القارىء من تكرير المعاد المكرور « ومت بداء الصمت خير لك من داء الكلام »

والالحاح في طلب الشهرة ينبيء عن «مركب نقص» دخيل يحسه صاحبه ويريد أن يغطيه عند نفسه أولا وعند الناس ثانيا. وما يعظم المعظم حتى يتوارى عن أعين الناقصين إشفاقا عليهم من آلام الحسد والفقد . وإذا اكتملت معاني الثقة والعظمة في نفس عاشت منها في ضجة يخيل إليها معها أن بصيرة الناس تحسها وآذان القلوب تسمعها ، فلا حاجة بها بعد ذلك إلى إعلان أو إلحاح ولجاجة .

وكم يحملني شخص لم يكتب إلا كلمة أو لم يخطب إلا مرة واحدة على احترامه وتقدير ما عنده لأني عرفت نفسه وجوهر فكره وقلبه .

وكم يحملني آخر من « محترفي صناعة الكلام » على احتقاره وازدراء ما عنده ولو غطى نفسه بألف رداء من التظرف أو التوقر أو البراعة في اللعب بالألفاظ ... جوهر النفس أشع وأوضح من أن يخفى .. فليعرف ذلك الخادعون الناس والمخدوعون في أنفسهم المغرورون بالألفاظ ، السيئو الظن بعقول الناس وذاكرتهم وتأويل صمتهم ...

* * *

ألاعبون بالألفاظ أيها الأدباء ... أم مؤمنون بالخير والجمال الأصيل ؟

أأرضيون أنتم تترجون عن حياة حيوانية ... أم متعلقون بما فوق ... ؟

أأذكياء أنتم تمرضون فصاحتكم وشقشقتكم واختلاج ألسنتكم وأقلامكم ... أم لكم قلوب تشيرون بها وحدها إلى الحقائق الكبيرة في الحياة ؟

أمصرون على التلهي بالأصداف والقواقع والقشور ... أم ساعون جاهدون إلى إدراك الجوهر واللب ؟

أأوابد مفرقة متهاترة ... أم جنود في كتيبة واحدة لغاية واحدة ؟ إنكم بالأوضاع الأولى محترفون للتعيش والكسب ... وبالأوضاع الأخرى أصحاب رسالة ... إنكم بالأولى ترضون أن تبيعوا أقلامكم وتعيشوا من غير عقيدة وهدف وتؤجروا كما تؤجر النوادب أو القيان للوقوف في المآتم والأعراس بدون قلوب ولا دموع ولا ابتسام ولا ابتهاج ...

وإنكم بالأخرى تفرضون سخطكم على أمراض العقول وتصحيحكم على أغلاط الناس وتسيرون في الناس كالراعي في القطيع وكالآباء في الأسرة ...

يا لضيعة الانسانية إذا ما سخرت جهالها علومها وآثامها

فضائلَها وأمراضها سلامتَها ! ياضيعة الرءوس إذا ماتحكمت فيها الأقدام والأيدى والمدات !

* * *

غفرانك ياقلم ! وصفحاً عن جريرة الذين يحملونك ولايدرون مجدك وملكوتك !

هم لا يدرون أين يغمسونك ... فهم يغمسونك فى الأوحال والأدناس ويقدمون على طرفك للناس بعراً ... وهم يتوهمونه زهراً ... من تدليس معاطسهم وكيد أنوفهم وانتكاس طبائعهم

إن بعض الكتاب لا يغمسونك إلا فى دماء قلوبهم ولا يصدرون بك إلا عن وحى الحق والواجب والجد والجمال الأصيل فهم لا يكتبون ليملؤا صحائف بمداد أسود وكفى ... فمل الذين يملئون به عن أنفسهم التى تحس الحقارة وتنطيها بالشهرة وتريد أن تقول حتى للحمير والكلاب والأحجار : هاأنذا . هاأنذا أديب كبير أيتها الأحجار والحمير ! ولكنهم يكتبون فاهمين حرمة القلم الذى أقسم به الإله ... وفاهمين أنه هو الذى غير تاريخ البشرية وجعلها تسير نحو مجدها وتسجل خطواتها ، فليس لأحد أن يستعمله إلا فى مطالب الشرف

ولو درى بعض الأدباء أى جناية يجنونها على الخلق والشرف والجمال فى نفوس الشباب لحطموا أقلامهم واستبدلوا بها الفئوس أو المكانس ... فان فى استعمال الفأس أو المكنسة معنى سامياً فى خدمة الانسانية من وجوه ...

إن بعض الأدباء أفلسوا فى أن يقدموا للانسانية معنى يرفعها أو شعاعاً يهديها ... فماذا يفعلون ليشتهروا ؟ لا شىء إلا أن يقدموا لها معنى يخفضها ... على مذهب القائل :

إذا أنت لم تنفع فضر فانما   يرجى الفتى إذ ما يضر وينفع

* * *

وشهد الله أننا ما نكتب لشهوة الكلام ، ولا لرؤية الصحف المسودة ... ولا ليقال عنا إننا كذا وكذا ... وإنما نكتب حين نشعر أن دمنا يسير إلى أقلامنا ويرعش بناننا فترسم به صوراً ... !

ليس بنا فتنة الحديث إلى أحد ... وإنما نتحدث إلى أشياء أخرى لا يراها الناس ... نتحدث إلى طبقة « أرستقراطية » مخبوءة مضنون بها على أكثر العيون والأسماع ... تقول لها وتقول لنا ، ونلازمها وتلازمنا متفاهمين ليس بيننا غل ولاشحناء . ترينا من عجائبها ونلبسنا مما عندها مناظر وأثواباً ... وتضيء لنا بمصابيح ... وتمرقنا إلى جهات مجهولة ، وتقذف بنا إلى كل ناء بعيد ... وتقول للدنيا المستورة : هذا قارع لبابك طويلاً فافتحى له وخذيه ....

* * *

وأعود فأكرر : إن فى حديقة الله أعاجيب وتهاويل وحقائق كثيرة لا تنالها إلا الأقلام النظيفة

وإن فى الأدب الحق صوفية تحتم إدامة النظر إلى « الفنان الأعظم » الذى « إليه يصعد الكلم الطيب »

(القاهرة)   عبد المنعم خلاف

منتخبات من بلاغة الغرب

الجزء الأول

للأستاذ محمد كامل حجاج

... حسبك دفاعا مع العظمة التى أقبرتك فى كوخك وأهاجت عليك السماء وما حوت والأرض وما وعت ، حتى اغبر وجه الكون عليك أسفا وأظلمت الدنيا حداداً . فاخضع أيها الغريق للقضاء واستسلم لهذا اليم الجبار العتيد

وهذه الشمال العاتية التى أوشكت أن تقوض أركان مأواك ، وهذا الوابل الذى كاد يجرف ذراك ، وتلك الغياهب التى تهلع لها القلوب ، تبذل الوسع لمحوك وفنائك . وهذا الليل ، المقبل بالويل ، الذى ترتعد منه رعبا سيصب فوق رأسك الأعاصير الهوج مع الظلمات ، فاجمع أعضاءك والتصق بالأرض وطأطئ رأسك لما يهب فوقها من العلى دون أن تسائل السماء المعتمة عن السبب ، ودع الهلاك يسيل فوق أعضائك التي تثلجت من الهول ، إذ لا قوة لك ولا حول

فيكتور هوجو